شخصيات أدبية

جـــــــان دى لافـــــــونتين

جان دى لافونتين Jean de la fontaine

الشاعر وأشهر كاتب حكايات وأساطير للأطفال فى تاريخ الأدب الفرنسى

أ.د. على راشد

تعد أساطير "لافونتين" التى كتبها الشاعر والأديب الفرنسى "جان دى لافونتين" على مدار ٢٦ عامًا، والبالغ عددها ٢٣٤ حكاية، من أفضل ما كتب على لسان الحيوانات مثل : الأرانب، الجنادب، السلاحف، الثعالب، النمل، وإلى غير ذلك، والتى من خلالها صور هذا الأديب سلوك الإنسان من خلال تصوره لسلوك الحيوان، والتى اكد فيها أن الحياة غابة، وطبائع الحيوان فيها مثل طبائع الإنسان : حب السلطة، الطمع، العنف، إلى غير ذلكن بصورة واقعية، وكتب هذه الحكايات الأسطورية بنظم شعرى خفيف وطبيعى. وحتى يومنا هذا فان قصص وحكايات "لافونتين" مازالت تؤدى دورًا كبيرًا فى تعلم أطفال فرنسا.

ولد "جان دى لافونتين" فى القرن السابع عشر الميلادى، فى الثامن من يوليو عام ١٦٢١م، وتوفى فى الثالث عشر من إبريل عام ١٦٩٥م، أى أنه عاش حوالى ٧٤ سنة.

وكان ميلاده فى بلدة "شاتوتيرى"، فى منطقة "شامبلين" التى تقع فى شمال شرق فرنسا. والده هو "تشارل دى لافونتين"، كان يعمل كمسئول عن حماية الغابات والممتلكات الحكومية فى دوقية "شاتوتيرى"، أما أمه فقد كانت تدعى "فرانسوا بيدو" تنتمى أصولها إلى طبقات متوسطة من المجتمع الفرنسى.

تلقى "جان" – وهو الابن الأكبر لأسرته – تعليمه فى المدرسة الثانوية الفرنسية، التى تؤكد فى تعليم طلابها على تعليم قواعد اللغة الفرنسية، ثم التحق بمؤسسة دينية تعرف باسم "أراتورى Oratory"، وأكمل تعليمه الدينى بالمعهد اللاهوتى "Saint Magloire" وهو مازال ابن العشرين من العمر عام ١٦٤١م، ولكن لم تستهويه دراسة الدين، فاتجه إلى دراسة القانون، ويقال أنه قد تم قبوله فى مهنة محام.

وفى عام ١٦٤٧م تنازلُ له والده عن منصبه كمسئول عن حماية الغابات والممتلكات الحكومية الخاصة بدوقية "شاتوتيرى"، وقام بعمل الترتيبات اللازمة لزواج ابنه "جان" من فتاة تدعى "مارى هيريكار" وكانت فى سن الرابعة عشر من عمرها، تتميز بالجمال والذكاء، كما كانت من عائلة ثرية، ولكن لم يكن الزوجان على وفاق، فقد كانت الزوجة مهملة كربة منزل، وأنها مدمنة قراءة الروايات، كما دارت حولها بعض الشائعات المغرضة، وهذا أدى لأن يبتعد الزوج عن بيته بشكل مستمر، ولم يكن شديد الالتزام سواء فى بيته، أو فى عمله، قصادف مشكلات عديدة فى شئونه التجارية، وبالرغم من كل هذا رزقا بابن واحدًا عام ١٦٥٣م، تولت والدته تعليمه وتربيته ورعايته بشكل كامل.

وفى عام ١٨٥٨م تم الفصل بين ممتلكات الزوجين، ولم يعيشا تحت سقف واحد، وعاش "جان" السنوات الأربعين من حياته فى العاصمة الفرنسية باريس، بينما استقرت زوجته فى بلدة "شاتوتيرى" مع والدها، وكان الزوج يزور هذه البلدة من حين إلى آخر.

بدايات الطريق الأدبى فى باريس :

فى أثناء السنوات الأولى من زواجه، كان "لافونتين" يتردد على باريس كثيرًا، وعندما بلغ من عمره الثلاثين قرأ أعمال الشاعر والناقد الفرنسى "ماليرب"، وقد كانت هذه الأعمال بمثابة الشرارة التى أطلقت الخيال الشعرى فى وجدان "لافونتين"، فبدأ فى كتابة بعض المحاولات الأدبية مثل : قصائد قصيرة تختتم بفكرة ساخرة، والقصيدة ذات الثلاثة مقاطع التى يتألف كل مقطع منها من ثمانية أبيات، والقصيدة ذات الثلاثة عشر بيتًا وقافيتين.

وكانت أول أعماله الجادة هى اقتباس عن مسرحية كوميدية، أظهرت موهبته فى الكتابة، ولذا قدم له صديقه "فوكاى" الراعى الأول للحركة الأدبية فى فرنسا منحة حكومية عبارة عن مبلغًا كبيرًا من المال، تسلمه "لافونتين" على دفعات، بحيث تقدم له دفعة على كل نسخة من أشعاره، كما بدأ أيضًا فى كتابة مزيج من النثر والشعر.

وفى ذلك الوقت كتب "جان" مجموعة من أشعاره الحيوية المتميزة إلى الدوقة الإيطالية "مارى آن مانسينى" وهى أصغر بنات أخوة الكاردينالى الإيطالى "مازاران"، فاستحسن الدوق والدوقة هذه الأشعار، وأشاعا عن موهبة هذا الشاعر الفرنسى، فبدأ الناس يعرفونه.

سنوات الشهرة :

تضمنت هذه الحقبة فى تاريخ الأدب الفرنسى أربعة من العمالقة هم : لافونتين، وراسين، وبوالو، وموليير، وكان لافونتين وموليير من عمر واحد، أما راسين وبوالو فكانا أصغر سنًا، وكانت هناك – أحيانًا – مقابلات بين هؤلاء العمالقة، ليدعم كل منهم الآخرين فى المجالات الأدبية المختلفة. واستمر الشاعر فى السعى وراء تكوين صداقات جديدة، ليستفيد منها فى صقل موهبته، وإضافة خبرات أكثر من خبراته.

وزادت موهبة "لافونتين" بشكل واضح فى أشعاره التى كتبها ويتلقى بناء على ذلك عطايا كثيرة وهو مازال ابن ٤٣ عامًا، كما أقسم يمين الولاء والالتزام بمهام منصبه الرسمى كواحد من النبلاء التابعين لدوقة "أورلان" – والتى كانت أيضًا أرملة لأحد النبلاء – وتم منحه اللقب فى احتفال رسمى أقيم فى لوكسمبورج.

وفى عام ١٦٨٢م كان "لافونتين" – الذى كان يناهز الستين عامًا – قد أصبح واحدًا من أشهر الأدباء الفرنسيين، وقد وصفت مدام "دى سيفينيه" – وهى إحدى أشهر الناقدات الأدبيات فى ذلك الوقت – الإنتاج الأدبى للشاعر "لافونتين" من أعظم الأدب على مستوى العالم.

حكايات ونوادر عن شخصية لافونتين :

صورت الحكايات الأدبية التى تناقلتها الأجيال شخصية لافونتين المثيرة للفضول، على أنها شخصية أسطورية خرافية، وكان شرود ذهن "لافونتين" ولامبالاته بشئون أعماله أرضًا خصبة نمت فيها أفكار وكتابات الكثير من النقاد والأدباء، ومن هذه النوادر ما روى عن مقابلة "لافونتين" لابنه – ولم يكن قد رآه منذ سنوات – وعندما سأله أحد الحضور عن من هذا الذى أمامك ؟ فأجاب الشاعر : لاشك أننى أعرفه، ولاشك أننى قابلته فى يومًا ما، ولكننى لا أتذكر. ومن النوادر أيضًا، أنه أصر على الدخول فى مبارزة مع شخص اعتقد أنه أحد المعجبين بزوجته ولكن سرعان ما تراجع عن هذا الإصرار، ووجه الدعوة لهذا الشخص لزيارته فى بيته.

القصص والحكايات الخرافية والأسطورة التى كتبها "لافونتين" :

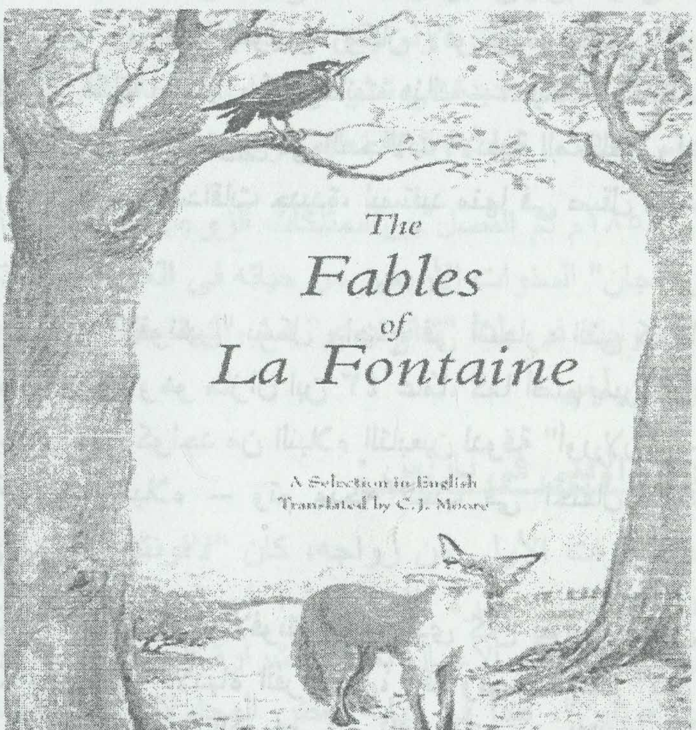

استلهم "لافونتين" حكاياته الأسطورية التى بلغت ٢٣٤، والتى كتبها فى ما يزيد عن ٢٦ عامًا فى الفترة ما بين ١٦٦٨، ١٦٩٤م، من عدة كتب وعلى

الأخص من كتاب "كليلة ودمنة" وهى مجموعة من القصص الخرافية التى تدور على ألسنة الحيوانات المكتوبة بلغات هندوسية وبوذية، وكتبها "لافونتين" شعرًا، وقرأتها الأجيال المتعاقبة من الأطفال الفرنسيين، ولكن أيضًا استساغها القراء

الكبار لتعليقاتها الساخرة على الطبيعة البشرية، ومن هذه الخرافات قصة : الأرنب والسلحفاة، وفيها يوضح أن غرور الأرنب بسرعته هزمه أمام إصرار السلحفاة المثابرة، وقصة النملة والصرصور حيث كانت النملة فى عملها المستمر النشط طوال فصل الصيف لتجميع غذائها، بينما الصرصور يلهو ويلعب ولا يعمل لفصل الشتاء القادم، فلما حل الشتاء ببرده القارص احتمت النملة فى بيتها، أما الصرصور فلم يجد أى طعام، فذهب إلى النملة يطلب منها أن تعطيه طعامًا، فقالت له : إنك لم تعمل حساب هذا اليوم، والآن تجنى عاقبة تكاسلك.

وقصة الغراب والثعلب التى نستعرضها هنا بالكامل : "وقف السيد غراب فوق الشجرة وفى منقاره قطعة من الجبن، سال لعاب السيد ثعلب عندما شم رائحة الجبن، فقال للغراب :

– صباح الخير يا سيد غراب .. كم أنت مليح، كم تبدو جميلا، صدقنى .. لو كان غناؤك فى جمال ريشك، لأصبحت أعجوبة هذه الغابة..

اهتز الغراب فرحًا بهذه الكلمات، وفتح منقاره ليثبت للثعلب أن صوته جميلا بالفعل فسقطت قطعة الجبن من منقاره على الأرض، فأمسك بها الثعلب وأكلها على الفور ثم نظر إلى الغراب وقال :

– اعلم سيدى الغراب أن أى منافق يعيش على حساب من يصغى إليه.

شعر الغراب بالخزى والخجل، وندم على ما حدث، ولكن بعد فوات الأوان".

ومن القصص أيضًا : الأسد الذى ادركته الشيخوخة، والذئب والحمل، والراعى والذئب، والقط والثعلب، الدب وصاحبه، وحكاية الضفدعة والثور.

لقد صاغ "لافونتين" خرافاته فى ١٢ كتابًا، وحكاياتها كثيرة منظومة شعرًا مبتكرًا يلاحظ فيه أفكار سياسية جريئة، بالإضافة إلى مهاراته فى طرحه للأفكار عن الأخلاق، ويتضح فى سياق سرده القصصى إدراكه التام للطبيعة البشرية، وتمكنه الفنى من صياغة أفكاره.

وربما يكون أفضل نقد قصصى لقصص وخرافات "لافونتين"، هو ما ردده اللغوى المستشرق الفرنسى "سيلفستر دى ساسى" بأن هذه القصص والخرافات أدخلت البهجة والسعادة على قلوب الطفال لأجيال متعددة، فالطفل يبتهج بالنضارة والحيوية والطرافة التى تتميز بها هذه القصص والخرافات، أما الدارس فى الأدب المتلهف فيجد فيها ضالته المنشودة من الأدب تام الكمال الذى يظهر فى السرد، بينما يستمتع الرجل ذو الخبرة بما فيها من تأملات بارعة فى الشخصية الإنسانية.

وهكذا أصبحت حكايات "لافونتين" الخرافية شائعة لى مر السنين، داخل فرنسا وخارجها لأغراض تعليمية للأطفال والكبار، ليتعلموا منها الحكمة والموعظة الحسنة. وقبل رحيل "لافونتين" عن دنيانا قال عبارته الشهيرة : "استعملت الحيوات لإرشاد الإنسان".